

دلالة التناسل التراثي في الشعر العربي المعاصر

The significance of traditional intertextuality in contemporary Arabic poetry

ط د-العيفة خطوي¹، أ. د. جعيرن ميهوب²¹ جامعة الأغواط، (الجزائر). el.khatoui@lagh-univ.dz² جامعة الأغواط، (الجزائر). m.djairene@lagh-univ.dz

تاريخ النشر: 2021/12/30

تاريخ المراجعة: 2021/10/30

تاريخ الإيداع: 2021/09/01

ملخص:

يعتبر التناسل التراثي - كبنية جاهزة لها محمولاتها الدلالية - يتداخل مع النص الشعري فيثري دلالاته ويؤطر بنيته حسبما يفجره الشاعر وحسبما يتناوله وما يخلع عليه من توشجات وعلائق تتجاوز معه وتختمر في سياق نصي جديد يناط به ويولد شفراته ورموزه، فاحتلت بذلك كلمة (تراث) في الثقافة العربية مكانة مرموقة وذلك ما للتراث العربي بكافة أشكاله وأنواعه من أهمية كبيرة في متن القصيدة العربية المعاصرة، فهو ماضي الأمة العريق وأصالتها المشرقة، فقلما نجد إنساناً عربياً يتخلى عن تراثه ولا يفتخر به، لأن ذلك أمر ليس من شيمه، بل نجد أن العرب قد اهتموا بالتراث العربي اهتماماً كبيراً، ووضعوه في ميزان حياتهم، وعملوا على توعية الأجيال الجديدة بعراقة هذا التراث، وكان من أهم وسائل الاهتمام بالتراث العربي العمل على توظيفه في الأدب روايةً ومسرحاً وشعراً، ونظراً لاحتلال الشعر المكانة الأبرز بين سائر ألوان الأدب الأخرى؛ فقد حظي الشعر العربي بشى ألوان التراث، وأصبحت بذلك القصيدة العربية تتغنى بالتراث في أحضان أبياتها، بل ويمكن لنا القول بأن جمال القصيدة العربية أصبح يتوقف على قدرة استدعائها للتراث. وبما أن الشعر جزء لا يتجزأ من الشعر العربي فقد اعتنى هو الآخر بالتراث بشكل وعمل على توظيفه مستخدماً في ذلك وسائل متعددة لتتغنى القصيدة العربية المعاصرة بالتراث¹.

الكلمات المفتاحية: التناسل، التراث، الشعر العربي المعاصر.

Abstract

The heritage intertwining - as a ready-made structure with its semantic implications - is considered to interfere with the poetic text, enriching its connotation and framing its structure according to what the poet detonates and as he deals with it and the interactions and relationships that he takes away from him and brewing in a new textual context entrusted with him and generating his blades and symbols, thus occupying the word (heritage) in the culture Arabic is a prominent place, and that is what the Arab heritage in all its forms and types is of great importance, for it is the nation's ancient past and its bright originality, so hardly we find an Arab person who

* المؤلف المراسل.

gives up his heritage and is not proud of it, because that is not a thing of his will, but we find that the Arabs have paid great attention to the Arab heritage Their life balance, and they worked to educate the new generations of the ancient heritage of this heritage, and one of the most important means of interest in Arab heritage was to employ it in literature, with novels, theater and poetry, given that poetry occupied the most prominent place among all other types of literature; Arabic poetry received all kinds of heritage, and the Arabic poem became rich in heritage in the arms of its rituals. Indeed, we can say that the beauty of the Arabic poem now depends on its ability to summon the heritage. Since poetry is an integral part of Arabic poetry, it has also taken care of the heritage in a way and worked to employ it using various means to make the contemporary Arab poem sing the heritage

Key words: intertextuality, heritage, contemporary Arabic poetry.

تقديم:

الشعر هو غلبة النور على الظلمة، والحق على الباطل، هو ترنيمة البلبل، ونوح النوق؛ وخير الجدول وقصف الرعد؛ هو ابتسامة الطفل ودمعة الثكلى، وتورد وجنة العذراء، وتجعد وجه الشيخ، هو جمال البقاء وبقاء الجمال؛ الشعر لذة التمتع بالحياة والعرشة أمام وجه الحياة؛ هو الحب والبغض؛ والنعيم والشقاء؛ هو صرخة البائس وقهقهة السكران؛ ولهفة الضعيف وعجب القوي².

"لأنّ طبيعة الشعر طبيعة انقلابية، ولا قيمة لشعر ينحني أمام القناعات الجاهزة فالشعر هو سفرنا خارج التاريخ، وخارج حدود الأشياء، وخارج أنفسنا، والشعر هو دخولنا انعدام الوزن، وتخلصنا نهائياً من جاذبية الأرض، فكل ما يدخل في نطاق المؤلف والعادة ليس شعراً"³.

أولاً: التناسل النشأة والمفهوم:

1.1. ماهية التناسل:

تعرفه " جوليا كريستيفا " بأنه ذلك التقاطع الحاصل داخل نص لتعبير مأخوذ من نصوص أخرى ، فهي تشير إلى أنّ التناسل هو تشكيل نص من قطعة موزاييك من الشواهد وكل نص هو عبارة عن امتصاص لنص آخر أو لعبارة أخرى تحويل عنه³.

فمن خلال هذه التقنية أي (التناسل) يصبح للنص أكثر خصوصية في امتلاك زمام الأمور ، من أجل استعادة النصوص الغابرة في أزمان مضت .

فهو الطريقة التي يتماس بها النص مع نصوص أخرى سابقة ؛ أو هو وضع النصوص السابقة بطريقة مغايرة في النص الجديد، وبصياغة أخرى؛ أو هو كيفية تطعم النصوص واتصالها بنصوص أخرى⁴.

ونعني بذلك أنّه "أي التناسل" هو عبارة عن كل نص يتعايش بطريقة من الطرق مع نصوص أخرى .

فالتناسل بمعناه الدقيق ، لا نقصد به رص النصوص مع بعضها البعض ، وإنّما هو إعادة إحياء هذه

النصوص ، ولكن بحلة جديدة ومغايرة .

لنجد بأنّ النصّ وفق مفهوم آلية التناص لا حدود له ، إنّهُ تقنية ديناميكية متجددة و متغيّر من خلال تشابكاته مع النصوص الغائبة ،فهو لا ينطوي على دلالة واحدة ، تجده متدفقاً دوماً بالدلالات الجديدة من عصر إلى عصر آخر .

ومنه نخلص بأنّ التناص هو ذلك التقاطع داخل نص للتعبير عن "قول" مأخوذ من نصوص أخرى، إنّهُ لتعبيرات سابقة أو متزامنة والعمل التناصي هو اقتطاع وتحويل إنه يولد هذه الظواهر التي تنتهي إلى بداهة الكلام انتماءها إلى انتقاء استطبيقاً تسميه " جوليا كريستيفا " – بالحوادية " و " الصوت المتعدد " ومن زاوية أخرى فإنّ الشعرية هي حاضر النصّ المكتوب ، والتناص هو الذي يمثل ذاكرته، فهو بمثابة بنية جاهزة لها سياقها المعرفي.

ومن صور توظيف التناص التراثي التي تعامل معها الشعراء في تمردهم، تشكيل مفردات الصورة من البيئة التراثية يقول الشاعر "أمل دنقل" في تمرده على التبعية والمذلة والهوان الذي يعيشه الإنسان العربي.

نَسْتَقِي –بَعْدَ خَيْلِ الْأَجَانِبِ– مِنْ مَاءِ أَبَارِنَا
صُوفُ حَمَلَانَا لَيْسَ يَلْتَفُ إِلَّا عَلَى مَغْزَلِ الْجَزِيَةِ
النَّارُ لَا تَتَوَهَّجُ بَيْنَ مَضَارِبِنَا
بِالْعُيُونِ الْخَفِيضَةِ نَسْتَقْبِلُ الضَّيْفَ
أَبْكَارُنَا ثِيَابَاتٌ⁴

يطرح شاعرنا "أمل دنقل" قضية تراثية جاء على لسان "زرقاء اليمامة"، فمن خلال هذه الشخصية التراثية لفضح الواقع المرير الذي يتخبط فيه الأمة العربية، وذلك من خلال تبليانه ما حاق بالعرب فيه من مذلة وهوان، وللتعبير عن ذلك راح شاعرنا ينبش التراث من خلال الشخصية التراثية "زرقاء اليمامة" كصوت يستعيره لتجربته استدعى أن يتم تناغم بين الموقف التراثي المستدعى وبين مفردات الصورة الشعرية، وهذا ما حاول شاعرنا فعله، فالبينة العربية التراثية ماثلة في القصيدة، لتتجاوز وتتجاوز الصور الشعرية، لتقدم في نهاية الأمر مشاهد النذل والإذلال.

أَيُّهَا الْعَرَاةُ الْمُقَدَّسَةُ
جِئْتُ إِلَيْكَ .. مِثْلُنَا بِالطَّعَنَاتِ وَالْدمَاءِ
أَزْحَفُ فِي مَعَاطِفِ الْقَتْلِ .. وَفَوْقَ الْجُنُثِ الْمُكْدَّسَةِ
مُنْكَسِرِ السَّيْفِ .. مُغْبِرِ الْجَبِينِ وَالْأَعْضَاءِ
أَسْأَلُ يَا زَرْقَاءُ ..
أَيُّهَا الْعَرَاةُ الْمُقَدَّسَةُ ..
مَاذَا تُفِيدُ الْكَلِمَاتُ الْبَائِسَةُ؟
قُلْتُ لَهُمْ مَا قُلْتُ عَنْ قَوَافِلِ الْغُبَارِ
فَاتَّهَمُوا عَيْنِيكَ، يَا زَرْقَاءُ بِالْبُورِ

إنّ شاعرنا "أمل دنقل" بهذا المعنى يتوحد بالتراث، وتصبح رسالته خالدة ومستمرة؛ لأنّه حينئذ يتحول إلى تراث، يلمس الثوابت في التراث فيستثيرها فيما واقع، ويخاطب الناس من خلالها، فيجدون فيه أنفسهم، وينقلونه إلى ذواتهم، فيتحوّل هو في اللحظة نفسها إلى تناص تراثي.

فللتراث أهمية بالغة للشاعر العربي المعاصر، فهو يستمد منه الرؤية والتاريخ والهوية، وقد وظفه الشعراء المعاصرون، لتحقيق أكبر قدر ممكن من التواصل مع التراث، ولإضائة سمة الحداثة والجدة عليه، ورغبة في التعويض العاطفي، وربما رهبة من وطأة زمن العجز الذي يحيونه، وهرباً إلى أحضان الماضي، الذي قد يبدو مجيداً أو مثالياً بالقياس إلى الحاضر. وقد استطاع الشعراء المعاصرون من خلال الإشارات التراثية، أن يعبروا عن رؤاهم الإنسانية والحضارية، وأن يعيدوا رسم الواقع، وفق رؤية تتساوق مع الحاضر، وتكشف عن شهادة إبداعية حية تتصل به، وتستحضر أبعاده، بما فيها من كبر وانتصار، وحلم في صنع مستقبل إنساني أفضل⁵.

لأنّ أية حالة أسطورية تملك تسمو على الواقع بكل معطياته وحين يحاول الشاعر أن يعبر عنها لا تسعفه لغة الحياة اليومية، اللغة المنطقية الواقعية ذات الدلالات المحدودة، فينشد الصراع بين حالة وجدانية وفكرية مكثفة، ولغة عاجزة محدودة، ومن هنا يستيقظ الخيال، تلك الأداة المعدة لإبداع لغة قادرة على التعبير ونقل هذه الحالة المركبة المكثفة، لتعمل على إبداع الشكل الذي كان الشاعر يبحث عنه حين كان في حالة مليئة بالإيقاع و الهيجان، لتصبح بذلك الأسطورة الآلة الفارقة بين التعبير العادي والمألوف عن الانفعال والتعبير الفني⁶.

ويقول الشاعر "صلاح عبد الصبور" في قصيدته "رحلة في الليل":

في آخر المساء يمتلي الوساد بالورق
كوجه قار ميت طلاسّم الخطوط
وينضج الجبين بالعرق
ويلتوي الدخان أخطبوط
في آخر المساء عاد السندباد
ليرسي السفين
وفي الصبح يعقد الندمان مجلس الندم
ليسمعوا حكاية الضياع في بحر العدم
لا تحك للرفيق عن مخاطر الطريق
إن قلت للصاحبي انتشيت قال : كيف؟
السندباد كالإعصار إن يهدأ يمّت⁷،

يستحضر شاعرنا "صلاح عبد الصبور" رحلة السندباد كبداية لانفتاح الرحلة صوب عالم الإبداع الشعري، ورحلته هي رحلة البحث عن الذات الإنسانية المتوثبة للكشف من خلال الإبداع، إنّها رحلة صعبة وطويلة من أجل تشكيل الرؤية الشعرية، ومغامرة الرحلة السندبادية المعاصرة تتجلى في مغامرة الكشف

الشعري والإبداعي المغاير والمختلف على ما اعتادت عليه الأذن العربية ، لأنّ شاعرنا المعاصر أصبح أكثر فطنة من ذي قبل .

لأنّ الشعر مغامرة في فضاء الحياة والخلق والكون؛ وهذه المغامرة من أولى مساعيها الاكتشاف؛ ومحاولة التجديد من خلال السعي إلى تجاوز أطر سابقة، ونوازع تشكيلية معتادة، إلى آفاق جديدة غير متوقعة؛ ولا معتادة؛ والشاعر المجدّد هو الشاعر القادر على تجاوز كل ما هو مألوف، إذ إنّ المبدع الحقيقي لا يتوقف حيال تجارب قد مضت وحيال تجارب قد تفتقت؛ يجتر منها وميض وجوده وبريق إبداعه؛ عليه أن يتجاوزها على الدوام؛ فالشاعر المبدع هو ابن المغامرة والإبداع⁸.

فإذا كانت رحلة السندباد في الليالي هي رحلة الجوال والمكتشف والمغامر، فإنّ الرحلة هنا هي رحلة الشاعر العربي المعاصر، أو المبدع إلى مدائن الإبداع، عبر معاناة روحية وإبداعية صعبة مع أكداس الورق، لتشكيل القصيدة تشكيلاً جمالياً، إنّها رحلة المبدع صوب المعرفة، ومن خلال اللّغة لاصطياد كنوز النصّ الشعري؛ فعندما ينام الآخرون مستسلمين للسكينة والثبات، فإنّ الأنا الشاعرة ترسي قلوبها في آخر المساء، لا لتستريح بل لتبدأ الإبداع حالها حال "السندباد" وتشكله عبر معاناة مضنية مع خطوط اللغة ومحاولاتها للتشكيل المتميز والخالق، وهكذا تتراكم محاولات الإبداع الشعري لتملأ وسادة الشاعر المبدع بما هو جديد لم يطرقه المبدعين غيره من قبل ، فهو يريد التميز عن سابقيه .

إنّ تصوير شعري بارع لذلك المخاض الذي يعانيه الشاعر في سبيل إبداع قصيدته الشعرية في أجمل حلة . فرحلة السندباد هي رحلة مغامرة واكتشاف، وعملية التشكيل الشعري هي الأخرى مغامرة ورحلة ليست بالسهلة⁹.

لقد نهل الشعراء من التراث شيئاً وافراً، للتعبير عن قضاياهم الوطنية والقومية والإنسانية العادلة، وعكفوا على توظيفه، واستحضاره في فنونهم الشعرية بكثافة، جعلت منه مادة معرفية، ينعكس من خلالها الإنجاز الإنساني، في صورة حركية لا تقدس التراث، بقدر ما تتفاعل معه، وفق رؤية معاصرة، تعمل على إنتاج دلالات جديدة ترتبط بروح العصر، النفس الشعري للكشف عن أحلام الجماعة، وطموحاتها الإنسانية¹⁰.

فالكلمات والعبارات في الشعر يقصد بها صور إيحائية، وفي هذه الصور يعيد الشاعر على الكلمات قوة معانيها التصويرية في اللغة، إذ الأصل في الكلمات في نشأتها الأولى كانت تدل على صور حسية، ثم صارت مجردة من المحسّنات، وهذا معنى ما يقال من أن الكلمات في الأصل كانت هيروغليفية الدلالة أو تصويرية، والشاعر يحاول أن يتحدث لغة تصويرية في مفرداته وجمله، أي أنه يعيد إلى اللغة دلالتها الهيروغليفية التصويرية الأولى بما يبث في لغته الشعرية.

يقول الشاعر عبد الوهاب البياتي: في قصيدة "الموت في الحب"

أَيُّهَا الْعَذْرَاءُ

هُزِي بِجَذَعِ النَّخْلَةِ الْفَرْعَاءِ

تَسَاقَطُ الْأَشْيَاءُ

تَنْفَجِرُ الشُّمُوسُ وَالْأَقْمَارُ

يَكْتَسِح الطُوفَانُ هَذَا الْعَارُ

نُؤَلَدُ فِي مَدْرِيدِ

تَحْتَ سَمَاءِ عَالَمٍ جَدِيدٍ¹¹

وقد اكتسبت تقنية التناسخ مع الخطاب الشعري القرآني أواصر جد قوية مكنت شاعرنا العربي المعاصر ، من الاستدعاء والتوظيف الجيد لأصدق وأروع خطاب عرفته البشرية ، هذا الخطاب الذي وجده الشاعر صالح لكل زمان ، فوظفه لأنه وجده جزءاً لا يتجزأ من البنية الدلالية لقصيدته المعاصرة ، فالآيات القرآنية ارتبطت ارتباطاً وثيقاً مع متنه الشعري عضويًا وبنويًا ودلاليًا، وهذا تشكيل جديد على نفس الحدث يؤكد أن هذه العملية التناسخية ليست مطلقاً ، أو هي مجرد عملية اقتباس، بقدر ما هي عملية تفجير لطاقات دلالية كامنة يستكشفها الشعراء .

لقد استحضّر شاعرنا في المقطع السابق الآية الكريمة "وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً"، مستغلاً بذلك مغزاهما، الذي يوحي بحدوث المعجزات والخوارق، وهو ما يصبو إليه البياتي أيضاً، لكن المعجزات التي يطلبها البياتي لا تتعلق لا بطعام، ولا بشراب، بل بالثورة التي تجتاح كالطوفان هذا العالم المتردي، وتغسل العار عن جبينه، وتستبدل بهذا الواقع السلبي واقعا أكثر إشراقا، يستطيع الإنسان من خلاله يحيا حياة كريمة، والتناسخ مع هذه الآية القرآنية واضح، يتجلى منذ القراءة الأولى، وذلك لإتكانه على صيغة قرآنية معروفة، كما أنّ السياق القرآني الغائب، يتوافق مع السياق الشعري الحاضر في إطاره العام¹³.

وليس التناسخ مجرد اقتناص ساذج لألفاظ سابقة أو لواصق مقتبسات تجميلية تزين النص، بل إنه عملية اختراق مقصودة للبنية اللغوية القارة في الذهن، في شكل إشعاعات دلالية تجعل الماضي الجميل المستعارة شعورياً أو لا شعورياً لخلق فضاء مضيء متداخل متعدد الدلالة ولذلك فإنّ الحضور الذهني المشترك بين إشارات النص التي يدركها المتلقي بعد أن يستدعيها المبدع هو الذي يقيم العلاقات، وينتج الدلالات ويجعل النص بنية مفتوحة على الحاضر، وتتحرّك نحو المستقبل، وهذا يغير فكرة البنية المغلقة على الأنية¹⁴.

ويستحضر البياتي في نص شعري واحد آيتين من القرآن الكريم مقتبسا منهما بعض التراكيب في قصيدته "صورة للسهروردي في شبابه".
لَوْ كَانَ الْبَحْرُ

مَدَادًا لِلْكَلِمَاتِ لَصَاحَ الشَّاعِرُ، يَا رَبِّي نَفَدَ

الْبَحْرُ وَمَا زَالَتْ عَلَى شَاطِئِهِ أَحْبُوبُ، الشَّيْبُ

عَلَا رَأْسِي وَأَنَا

مَا زَالَتْ صَبِيًّا لَمْ أَبْدَأْ بَعْدَ طَوَافِي وَرَحِيلِي،

فَإِذَا احْتَرَقَ الْخِيَامُ

بَنَارَ الْحُبِّ وَأَصْبَحَ فِي حَانَ الْأَقْدَارِ حَجَابًا،

فَإِنَّا حَوْلَ النَّارِ

فَرَأَشُمَا زَلْتُ أَحُومُ وَأَفْنَى لَيْلِي سَكْرًا، أَتَأَمَّلُ

وجه القمر

نلمس في هذه القصيدة صدى الآيتين الكريميتين، من سورتي "الكهف" و "مريم" على التوالي قوله عز وجل: "قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلَّمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا " ، وقوله تعالى: "وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا " .

لقد استغل شاعرنا "عبد الوهاب البياتي" هذين النصين القرآنيين، في تأكيد شدة معاناته، وطول انتظاره للكشف الإلهي المعرفي الذي وصل إليه الخيام، والذي مازال هو ينتظره بفارغ الصبر . ويلاحظ أنّ عملية التناص مع الآيتين الكريميتين، قد تمت بعد أن أخذت الدلالة مسارا نفسيا خاصا في نفس الشاعر ، فقد فجر شاعرنا من النص القرآني الدلالة التي تتفق وسياقه الشعوري الخاص، أي إنّ التناص هنا قد تم من خط ثنائية الحضور والغياب، حضور الصيغة القرآنية وغياب دلالتها الأصلية¹⁵.

فالشاعر يبدع لحظات إيمانية مضيئة بصفاء القرآن الكريم، فلا يجد سوى الملجأ القرآني ليأخذ منه عبارات وألفاظا تتشكل ودلالات تحاورت مع الدلالات التي قبلها، ولكنه صهرها في ذاته، لأنّ القرآن الكريم مصدر إلهام للذات الشاعرة، تتفياً ظلال لغته، وتتأمل في حضرة الكلام الإلهي، وتهل من ينابيعه المختلفة، وتتزود ما شاء الله لها من إعجازه، وتنوع أساليبه، ووفرة مخاطباته، وتستمد الذات الشاعرة شاعريتها من شاعرية النص القرآني المبدعة¹⁶.

يعد التاريخ منبعاً ثرياً، من منابع الإلهام الشعري، يعكس الشاعر من خلال الارتداد إليه روح العصر، ويعيد بناء الماضي فق رؤية إنسانية معاصرة، تكشف عن هموم الإنسان ومعاناته وطموحه وأحلامه، مما يعني أن الماضي يعيش في الحاضر، ويرتبط معه بعلاقة جدلية تعتمد على التأثير والتأثر، حيث يستلهم الشاعر أوجه التشابه بين أحداث الماضي، ووقائع العصر وظروفه سلباً أو إيجاباً، وهو في هذا كله يطلق العنان لخياله ليكشف صدى صوت الجماعة، وصدى نفسه في إطار الحقيقة العامة التي يبحث عنها، أو الموضوعات التاريخية الكبرى التي تشكل حضوراً بارزاً في تاريخ الأمة، دون الخوض في جزئيات صغيرة¹⁷.

الموروث الأدبي:

يعد المورث الأدبي من أكثر المصادر وأقربها، إلى نفوس الشعراء في العصر المحاضر فهو يلامس، اهتماماتهم ووجدانهم، ويعتبر منبعاً غنياً يرفد الناهلين، بتجارب حية من التراث الإنساني على مر العصور والأزمات، ونظراً لأنّ الشاعر الشهيد قد تميز بعمق فكره، وسعة إطلاعه، ونضج تصوره، فإن ذلك مكنه من استلهم بعض تلك التجارب الشعرية المشابهة للتجربة التي خاضها، فعبر عنها تعبيراً، يحاكي فيه ما قاله الشعراء في تجاربهم، مع قلة ارتكازه على هذا الجانب في شعره، ولعل ذلك يعود إلى انشغاله بجانب الدعوي الديني، نظراً لتبوءه قيادة الدعوة في حركة المقاومة الإسلامية. حماس. لذا كان لاستدعاء المورث الديني الحظ الأوفر في شعره، ومن الشعراء الذين استدعاهم الشاعر في قصائده الشعرية¹⁸.

وفي تشكيل الصورة الشعرية لجأ الشاعر العربي المعاصر إلى توظيف التراث، ولكنهم في تمردهم الفني انجذبوا إلى نوع معين من التراث، فتعاملوا مع التراث الذي يناسب ويلائم رؤاهم وتصوراتهم، ويتجاوب مع تمردهم.

يقول الشاعر "أحمد طه":

أَنَاوُلُ نَفْسِي خُبْرًا مَوَاجِدَ
فَالْيَوْمُ أَتَمَمْتُ لِي أُمْنِيَّتِي
وَاخْتَزَنْتُ حُرُوفِي
جِيْمِي
جَحِيْمُ
وَجِيْمَكُم
جَنَّةُ
وَأَنَا مُفْرَدٌ فِي الْجَحِيْمِ

تستدعي الذات الشعرية في المقطع السابق موقفا من مواقف النفري، وهو موقف المحضر والحرف، يقول فيه النفري "وقال لي الحرف يسري حيث القصد جيم جنة وجيم جحيم" وتمارس الذات من خلال الموقف السابق تضخمها، ولكنه تضخم يتعامل مع الموقف من خلال رؤيته الشعرية الخاصة المتمردة، لكنه يصب في الاتجاه الديني السليم الذي يرى أَنَّ الأعمال بالنيات، وَأَنَّ لكل امرئ ما نوى، ولكن شاعرنا في قصيدته جاء مغايرا للمعنى المعروف، فليس الحرف واحدا، فغير من معناه، لتصبح الذات الشاعرة هي الفاعل الحقيقي، فتتناص الصورة الشعرية في مستواها اللغوي مع قول الرسول عليه أفضل الصلوات والتسليم في ماجاء في خطبة الوداع حين قال: "اليوم أتممت عليكم نعمتي"، مع انحراف مقصود، يتحول فيه المخاطب من الرسول صلي الله عليه وسلم إلى الشاعر نفسه، وتتحول فيه النعمة إلى ميتة، وهو الأمر الذي تلاءم مع تشكيل الصورة الشعرية.

ويقول في قصيدته: "قصيدة على سيف البحثري"

كَانَ يُدْرِبُ الْقَصَائِدَ ...
كَيْفَ يَبِيعُ رَأْسَهَا عَلَى الْوَسَائِدِ ...
وَكَيْفَ تَحْلُبُ الثَّدْيَيْنِ ،
فِي نَعْلِي أَمِيرٍ ،
كَانَ مُخْبِرًا وَشَاعِرًا شَرِيرًا
وَكَانَ قَلْبُهُ دِينَارًا
وَكَانَ سَيْفُهُ مَسْمَارًا
يَسْرِقُهُ مِنْ حَدُودٍ ، أَوْ مِنْ جِدَارٍ ...
لَكِي يَدُقُّهُ فِي كَأْسِ كُلِّ شَاعِرٍ ، لِقَاءَ ذَلِكَ الدِّينَارِ ..
وَكَانَ يَغْتَسِلُ ...
بِبَوْلٍ - كُلِّ جَارِيَةٍ -

وكانَ يَكْتَجِلْ...

ببصقة الأمير قد - تَجَمَّدَتْ على جبينه²⁰

إن توظيف الشاعر العربي المعاصر للشخصية الأدبية جاء حسب عوامل جذبها لدى الكثير من الشعراء وقد أصبحت في التراث رموزاً وإشارات ، مرتبطة بقضايا معينة. قد تكون سياسية ، أو اجتماعية ، أو ثقافية أو حتى اقتصادية ، فوجد فيها شاعرنا العربي المعاصر ملاذاً ينفس به عن ما يختلجه من مشاعر وأحاسيس كامنة في أعماق نفسه .

يبدو جلياً وواضحاً من عنوان هذه القصيدة ، والذي أشار إشارة بيّنة إلى استحضار ماهية التاريخ إمكانية عدوله أيقونة رامزة من خلال الإشارة إلى سيف البحري ، هذه الشخصية الأدبية الذي ذاع صيتها في الماضي .

قارئ القصيدة تبدو له العلاقة بين العنوان والقصيدة أنّها علاقة انتشار ، فإذا حضر التاريخ في العنوان محدداً ودقيقاً مشيراً من خلال شخصية البحري إلى مدة معينة من حياة شعرنا العربي ، فاستخدموا شخصيات التاريخ وسيلة تعبير رامزة عن لحظة شعورية مزامنة للحظة الكتابة ، لقد احتضن القصيدة عزوفاً عن المباشرة والتصريح وميلاً إلى الإيماء والتلميح ، ومن ثمّ يغدو التاريخ وسيلة الإحياء إذ تستدعي لحظة شعورية تسعف الخطاب الشعري من السقوط في الواضح والمباشر ، خصوصاً أنّه خطاب استهتار وسخرية موجه لمجموعة من الشعراء .
يقول الشاعر "الثبتي":

غَرِيقُ بُلِيلِ الْهَزَائِمِ سَيْفِي

وَرُمَحِي جَرِيحُ

وَمَهْرِي عَلَى شَاطِئِ الزَّمَنِ الْعَرَبِيِّ

يَلُوكُ الْعَنَانَ

أَيَا دَارَ عِبَلَةٍ

عَمَتِ صَبَاحًا

قَفِي يَا ابْنَةَ الْعَمِ

هَآ أَنَا أَنْقَعُ أوردتي في جراح

الليالي

وَأَصْرُخُ وَأَعْبَلَتَاهُ

وَهَا أَنَا ذَا

أَتَمَدَّدُ فَوْقَ بَقَايَا رَفَاقِي

وأصْرُخُ...واعتَلَّتَاه²¹

لقد استطاع الشاعر "الثبتي" أن يرتفع ويرتقي بمستوى التعالق النصي بينه وبين الموروث الشعري العربي القديم، ووقائعية التاريخ والموروث الشعبي، من خلال استضافة أجواء ومضامين تلك الوقائع وتوظيفها في نصه الشعري، والسعي بذلك إلى خلق علاقات جديدة غير معهودة بين تركيباتها ومفرداتها لم تكن معروفة أو حاضرة في النص القديم، مما جعله ينفلت من إسار وأسلوب القصيدة السابقة وصياغتها ومضمونها، ولكنها كانت متأثرة ومتفاعلة ومتعلقة مع تلك النصوص، بما يعني عنده إعادة صياغة وتركيب لنص شعري حديث من بنية نص شعري قديم يتفق مع رؤياه المعاصرة، وينقله النسيج اللغوي والأسلوبي، ويكشف عن كنهه وماهيته التي تتناسب مع طبيعة التجربة الشعرية التي ينفرد بها الشاعر.

فعاد شاعرنا للماضي الجميل الذي حمل قيم افتقدها في وقته الراهن، وذلك باستحضار وقائعه، لأنّه بات من الظواهر الأكثر طلباً في بنية القصيدة العربية المعاصرة؛ حتى أصبح المتلقي يجد تراكمًا هائلاً في عملية استحضار النصوص الغائبة في النص الشعري الواحد، لأنّ علاقة الشاعر بفردوسه المفقود هي علاقة ارتباط بالماضي الذي يحدهّ القدر: حنين مجاني وبكاء للذكرى والعزاء، وفرح بقدرة ماضيه على انجاز جميل مضى، مع تغاير دلالة النصين السابق والحاضر بطبيعة الحال.

فكان التناسل التراثي مازال منبعاً ثرياً، من منابع الإلهام الشعري، ينقل الشاعر ويبحر به من خلال الارتداد إليه روح العصر، ويعيد بناء الماضي فق رؤية إنسانية جديدة بروح معاصرة، تنقب وتبحث في خوالج الإنسان عن معاناته وطموحاته وأحلامه، وهذا إن دلّ على شيء، فهو يدل على أنّ الماضي يعيش في الحاضر، ويرتبط معه بعلاقة جدلية وأواصر متينة تعتمد على خاصيتي التأثير والتأثر، حيث استلهم شاعرنا العربي المعاصر نقاط التشابه بين مجريات الماضي، وأحداث العصر الراهن، بما يحملانه (الماضي والحاضر) من إيجابيات أو سلبيات يتخبط فيها المجتمع. يقول الشاعر "أحمد دحبور"

قُنْفُذُ فِي الْيَدَيْنِ

شَفْرَةُ فِي الْعُنَاقِ

كُلُّ شَيْءٍ عَلَى مَا يُرَاقُ

وَالْمَسَاءُ النَحِيلُ يُرَاقُ مَا بَيْنَ عَاصِفَتَيْنِ

هَكَذَا يَسْرُدُ الْمَشْهَدُ اللَّحْظَةَ الْمُحْتَوَاهُ

تَقَعُ الْأُمُّ تَحْتَ يَمِينِ الطَّلَاقِ

فاللغة الشعرية الحقبة بطبيعتها المميزة تملي على المبدع هذه التقنية من التناسل، فالخطاب الشعري كما لو أنّه يصنع ذاته، والشاعر ماهو إلّا عبارة عن وسيط، أي أنّ الكلمة الشعرية التي لجأ إليها الشاعر "أحمد دحبور" عندما تهبط من عليائها لتتبوأ موقعها من القصيدة الشعرية تفعل ذلك بعد أن كانت قد ترددت في نصوص أخرى لا حصر لها، وكذلك العبارة، والصورة، والاستعارة، حتى الجديدة المبتكرة منها لا تخلو في الكثير من الأحيان من عناصر لفظية جرى تداولها، لكون تقنية التناسل بنيت على أساس أنّ هذه المادة جرى تكريرها في

النص فتحوّلت من مادة سديمية إلى نص ذي موضوع، واللافت عند شاعرنا "أحمد دحبور" أنّه يخاتل التعبير فتكسب الكلمة على يديه شكلا مغايرا ، وذلك بإعادة صياغة تضفي عليه معنى جديدا، وكذلك التعبير الذي يقال في العادة "رمى عليها يمين الطلاق" جرى التلاعب به وتغييره ، مما أضفى عليه معنى آخر .

إن استدعاء الشاعر العربي الحديث للموروث الديني لا يعني نقله كما هو؛ وإنما عليه أن يستخدمه رمزيا لحمل الأبعاد المعاصرة للرؤية الشعرية بحيث يسقط على معطيات التراث ملامح وهذا هو التعامل الحقيقي مع التراث؛ لأن معاناته الخاصة؛ فتصبح هذه المعطيات معطيات تراثية معاصرة الشاعر في توظيفه لا يسعى إلى الاستعانة بحقائق التاريخ ومضامينه؛ بل يعتمد على المضامين البارزة فيها فيمنحها بعدا يجعلها تتجاوز عصرها أو يحقق لها قدرة التواصل الحي مع العصر الراهن ليتبرز فيه بسماتها المميزة كما كانت في لأن إعادة الصياغة أو التقليد للموروث الديني وغيره من التراث لا قيمة له؛ لأنه يقدم حلول للمشكلات التي تعاني منها الشعوب والمجتمعات عبر الزمان والمكان

خاتمة:

- لقد استثمر الشاعر العربي المعاصر التناسل التراثي في كثير من أبنيته الفنية، فقد استفاد من التناسل مع الموروث القرآني، ومع الأسطورة وغيرها.
- إضافة إلى تشكيل مفردات الصورة من التراث العربي، فإنّ الشعراء في تمردهم الفني لجأوا إلى توظيف الشخصيات التراثية، ولكنهم اتجهوا إلى الشخصيات التي تتجاوز مع رؤيتهم المتمردة ومواقفهم الرافضة.
- من المسلم به أنّ اللغة جماعية بطبيعتها، وحضور السابق في الحاضر يعني وجود امتزاج خفي بين الذاكرة العامة والخاصة، إذ أنّهما ينصهران في بوتقة الإبداع.
- إنّ عملية عكس الدلالة في الشعر العربي المعاصر هي التحوير الأساسي الذي مسّ توظيفه للأسطورة، حيث قامت التجربة الشعرية الحديثة بإخضاعها (الأسطورة) إلى سياق القصيدة الحاضر لإعطاء النصّ الشحنة الشعورية الملائمة.
- لتغدو الأسطورة لديه معينا تناصيا لا ينضب، يلجأ إليه كلما أراد أن يعبر عن الواقع العربي المعاصر، وما يكتنفه من أزمت، ولتكون الملجأ الذي يسكن إليه، فكانت وسيلته التعبيرية وركيزته الأساسية.
- شكل التناسل الديني مصدرا مهما، من المصادر التي استفاد منها الشاعر العربي المعاصر، في مد تجربته الشعرية بنسج الحياة، وإعطائها صفة الديمومة والبقاء، وإكسابها قوة وفاعلية ، وذلك لما يشكله القرآن وما يتمتع به من قوة تأثير جد عالية.
- فالشاعر العربي المعاصر لم يقف عند حد الاقتباس، والنقل الحرفي من النصّ القرآني فحسب، بل استطاع أن يمتص الألفاظ، والتراكيب، والأساليب، فأعاد إنتاجية نصه الشعري بصورة جديدة تتفق مع رؤيته الشعرية.
- فنادر ما وجدنا الشاعر العربي المعاصر يحافظ على الدلالة الأصلية للنصوص القرآنية التي يستحضرها، إذ أنّ معظم تلك الدلالات الأصلية للنصوص القرآنية كانت تتخذ مسارا خاصا لديه، وذلك بما يتناسب والموقف أو القضية التي تساق تلك النصوص من أجلها.

- الشاعر العربي المعاصر تحرر من اللغة القاموسية وقيودها، إلى لغة حضارية تستوعب فكره وعصره، والانفتاح على اللغة الحضارية الراقية المستوعبة للفكر المعاصر على أن تكون وسيلتهم إلى هذا التحرر نابعة من إتقاننا للغة بالعودة إلى التراث، سعياً منهم إلى بعثه من جديد وإعطائه شرعية الحياة.
- إنّ توظيف التناسل التراثي يعتبر تقنية فنية أنقذت قصيدة الشاعر العربي المعاصر من الوقوع في شرك المباشرة وضيق الأفق، وذلك بتوسيع فضاءها وجعلها تحتل أكثر من إحالة وأكثر من قراءة ممّا يثريها ويفتح مجالاتها، كما أنّ هذه الآلية قد وسّعت بشكل كبير أفق درامية القصيدة العربية المعاصرة وارتفعت بها وبدلالاتها إلى فضاء رحب.
- إنّ استدعاء الأسطورة وكثافتها الرمزية، من خلال مستويات التناسل التراثي وآلياته المختلفة في تجربة الشاعر العربي المعاصر، نبع من طبيعة الرؤية التي تقدمها هذه التجربة، على المستويين الجمالي والفكري.
- لجأ الشاعر العربي المعاصر في استدعاء المعاني الدلالية للأسطورة للتعبير عن قضايا معاصرة مركبة، منها ما يتصل بموضوع الوجود والصراع على هوية الأرض وتاريخها ومنها ما يدل على هجرة الأساطير وانتقالها من حضارة إلى أخرى.
- إنّ الشعر العربي المعاصر مثّل شعر القطيعة والتمرد، والمغامرة، والتأسيس لحركة شعرية جديدة، فأعاد بذلك الشاعر العربي المعاصر إنتاج العلاقات الجمالية لحركات شعرية سابقة.
- فالتناسل - مثلما رأينا - ليس اقتباساً ولا تضميناً، ولا سرقة، شعرية أو نثرية، ولا استدعاء لنموذج تاريخي، أو أسطوري، يتألف من ألفاظ وأصوات وإيقاعات ورموز ذات مفاتيح دلالية واستعارات.

الهوامش:

1. نادر طاهر: توظيف التراث في شعر معينبسيو، ص 1.
2. ميخائيل نعيمة: الغربال، مؤسسة نوفل، ط 15، 1991م، بيروت - لبنان، ص 76.
3. عبد الله العشي: أسئلة الشعرية، ص 193.
4. أمل دنقل: الديوان، ص 42.
5. ماجد محمد النعماني: توظيف التراث والشخصيات الجهادية والإسلامية في شعر إبراهيم المقادمة، ص 1.
6. عبد الله العشي: أسئلة الشعرية، بحث في آلية الإبداع الشعري، منشورات الاختلاف، ط 2009، 1م، الجزائر، ص 121.
7. صلاح عبد الصبور: الديوان، ص 11-15.
8. عصام شرحت: الشعرية وصدمة الحداثة "رؤى جمالية"، ص 98.
9. محمد عبد الرحمان يونس: بعض الملامح السندبادية في أعمال صلاح عبد الصبور، مجلة علامات في النقد، ع 24، 1 يونيو 1997م، ص 233.
10. ماجد محمد النعماني: توظيف التراث والشخصيات الجهادية والإسلامية في شعر إبراهيم المقادمة، ص 46.
11. عبد الوهاب البياتي: الديوان، ص 53.
12. أحمد طعمة حلي: التناسل الديني في شعر البياتي، مجلة المعرفة، ع 525، 1 يونيو 2007م، ص 223.
13. سليم ساعد السلي: التناسل القرآني في شعر أبي إسحاق الإلييري، مجلة جذور، ع 47، 1 أغسطس 2017م، ص 25.
14. أحمد طه: الديوان، ص 362.
15. مشهور فواز: الصورة الشعرية وظاهرة التمرد في الشعر العربي الحديث، مجلة إبداع، ع 3 و 2، 1 فبراير 2000م، ص 99.
16. علي عشري: استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر المعاصر، ص 138.
17. محمد الثبيتي، الأعمال الكاملة، النادي الأدبي "حائل" بالتعاون مع مؤسسة الإنتشار العربي، ط 1، 2009م، بيروت- لبنان، ص 18.
18. محمود جابر عباس: استراتيجية التناسل في الخطاب العربي الحديث، مجلة علامات في النقد، ع 46، 1 ديسمبر 2002م، ص 298.

¹⁹. تيسير محمد أحمد الزبادات: استدعاء شخصية الحسين بن علي في الشعر العربي الحديث، ص 82.

²⁰ - معين بسيسو: الأعمال الشعرية الكاملة، ص 644.

²¹ - محمد الثبيتي: الأعمال الكاملة، ص 321.

قائمة المصادر والمراجع:

- إبراهيم خليل: أحمد دحيور وفاعلية التناسل، مجلة أفكار، ع 292، 1 يونيو 2013 م، سوريا
- أحمد طعمة حلي: التناسل الديني في شعر البياتي، مجلة المعرفة، ع 525، 1 يونيو 2007 م.
- أمل دنقل: الأعمال الكاملة، دار الشروق، ط 1، 2010 م، القاهرة - مصر.
- سليم ساعد السلمي: التناسل القرآني في شعر أبي إسحاق الإلييري، مجلة جذور، ع 47، 1 أغسطس 2017 م.
- صلاح عبد الصبور: ديوان الناس في بلادي، دار العودة، ط 4، 1988 م، بيروت - لبنان.
- علي عشري: استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر المعاصر.
- محمد الثبيتي: الأعمال الكاملة، النادي الأدبي "حائل" بالتعاون مع مؤسسة الانتشار العربي، ط 1، 2009 م، بيروت - لبنان، ص 18.
- محمد عبد الرحمان يونس: بعض الملامح السندبادية في أعمال صلاح عبد الصبور، مجلة علامات في النقد، ع 24، 1 يونيو 1997 م.
- محمود جابر عباس: استراتيجية التناسل في الخطاب العربي الحديث، مجلة علامات في النقد، ع 46، 1 ديسمبر 2002 م.
- مشهور فواز: الصورة الشعرية وظاهرة التمرد في الشعر العربي الحديث، مجلة إبداع، ع 2 و 3، 1 فبراير 2000 م.
- معين بسيسو: الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، ط 3، 1987 م، بيروت - لبنان.
- ميخائيل نعيمة: الغربال، مؤسسة نوفل، ط 15، 1991 م، بيروت - لبنان.